الرّثاء، والرّثاء النبوي

في الشعر العربي القديم

الرِّثاء لُغةً: البُكاءُ على المَيتِ ومَدحُهُ، يُقالُ: رَثَى فُلانٌ فُلاناً يرثيه رَثاء ومَرثيةً، إذا بَكاه بَعدَ مَوتِه. فَإِن مَدَحَهُ بَعدَ مَوتِه قِيل: رَثّاه يُرَثّيه ترثيةً. ورَثَيتُ الميّت رثاء ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً، ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته.

ورَثَوتُ الميّتَ أيضاً، إذا بكيته وعَدَّدت مَحاسنَه، وكذلك إذا نَظَمت فيه شعراً، ورَثأت الرجلَ رثاءً بالهمزة لغة، بمعنى رَثَيتُ ورَثوتُ[1].

وأمّا **معناه في الاصطلاح**، فيقول قدامة بن جعفر: ليس بين المَراثي والنّعتِ فرقٌ إلّا أن يذكر في اللفظ ما يَدلّ على أنّه لِهالك مثلُ «كانَ وتولّى وقَضَى وما أشبه ذلك»، وهذا ليس يَزيدُ في المعنى ولا ينقص منه. وقد يُسَلَك في التأبين مَسلَك آخَرُ يَدلُّ على الرّثاء، كأَن يُقال: ذهب الجودُ، أو مَن للجود بعده؟ وما أشبه ذلك[2].

ولما كان الرّثاءُ في الأصل ناشئاً مِن الحُزن والأسف، أضاف ابنُ رشيق على تفسير القُدامى للرّثاء، وقال: وسبيل الرّثاء أن يكون ظاهرَ التفجُّعِ بَيّنَ الحَسرَة، مخلوطاً بالتّلهّف والأسف والاستعظامِ[3].

وهناك كلمتان كثيراً ما تُستعملان في معنى الرّثاء فَيَبدو أنّه لا فرقَ بينهما، فهاتانِ الكلمتان هما النّدبُ والتّأبين. فهذا "قُدامة" كما سبق آنفاً استعمل التأبين في معنى الرّثاء.

لكن إذا أمعَنّا النَّظَرَ في معناهما وجدنا اختلافاً يسيراً بينهما. **فالتأبينُ** هو الثّناءُ على الشّخص بعد موته، **والنّدب** بكاءُ الميت وتعداد محاسنه، **والرّثاء** أعمّ منهما.

وينقسم الرثاء في الشعر العربي إلى ثلاثة أنواع أو درجات، هي الندب، والتأبين، والعزاء.

الندب: هو بكاء النفس ساعة الاحتضار وبكاء الأهل والأقارب، وكل من ينزل منزلة النفس والأهل من الأحباء وأخوة الفكر والاتجاه والمشرب، بل يمتد إلى رثاء العشيرة والوطن والدولة حين تدول أو تصاب بمحنة من المحن القاصمة المحزنة.

التأبين: ليس نواحا ولا نشيجا كالندب، بل هو أقرب إلى تعداد الخصال وإزجاء الثناء؛ إنه تنويه وإشادة بشخصية لامعة، أو عزيز ذي منزلة في عشيرته أو مجتمعه، وهو تعبير عن حزن الجماعة على الفقيد أكثر منه تعبيرًا فرديًا عن ذلك.

العزاء: هو في مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين. إذ هو نفاذ إلى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل، وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت. تأمل ينطلق إلى آفاق فلسفية عميقة في معاني الوجود والعدم والخلود.

ندب الرسول ﷺ:

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996م، ج 5، مادة رثى.

[2] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عيسى ممنون، 1934، ص: 59.

[3] ابن رشيق: العُمدة، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة حجازي، إيران، 1934، ج 2، ص: 140.

كان لوفاة الرسول ﷺ هزة عنيفة في المجتمع الإسلامي آنذاك، وتحولت بيوت الصحابة ومجتمعاتهم إلى مآتم تضج بالندب والبكاء، فالتاعت القلوب وتقرحت المآقي، وانطلقت القرائح تندب فقيد الإنسانية ومعلمها الأكبر ورسولها الأشرف ودليلها الهادي. ومن أجود ما قيل في ذلك عقب وفاته ﷺ قصيدة حسان بن ثابت التي جاء فيها:

بطيبَةَ رسمٌ للرسولِ ومعهدُ ... منيرٌ، وقد تعفو الرسومُ، وتهمدُ
ولا تتمحي الآياتُ من دار حُرمةٍ ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصعدُ

.....

وواضحُ آياتٍ، وباقي معالمٍ، ... ورسمٌ له، فيه مُصلّى ومسجدُ
بها حُجُراتٌ كان ينزل وسطها ... من الله نورٌ، يُستضاءُ، ويوقدُ
فبوركتَ يا قبرَ الرّسول، وبوركتْ ... بلادٌ، ثوى فيها الرّشيدُ المُسدّدُ
وبورِكَ لحدٌ منك ضُمِّنَ طيِّبًا ... عليه بناءٌ من صفيحٍ، منضّدُ
تَهيلُ عليه التّربَ أيْدٍ، وأعيُنٌ ... عليه، وقد غارتْ بذلك أسْعُدُ
لقد غيّبوا حِلمًا وعلمًا ورحمةً ... عشيّةَ علَّوْه الثّرى لا يُوسدُ
وراحوا بحزنٍ، ليس فيهم نبيُّهم ... وقد وهنتْ منهم ظهورٌ وأعضدُ[4]

لم أرَ بين النّاقدين وأهل الأدب مَن خالف قدامةَ بن جعفر في فنّ الرّثاء أو تَرَدَّدَ فيه، وجَديرٌ بأن لا يكون هناك خلافٌ أو شك، ذلك أنّ الإنسان مُنذُ وجوده على الأرض عَرَفَ مسألة الموت، وواجَه هذه المشكلة التي عجز عن حلّها. مَن الذي لَم يُفجّع يوماً بفقد أعزّائه، ومَن الذي لَم يندب على موت أقربائه، ولَم يتذكر أيّامهم وأعمالهم؟ الرّثاء نَفثَةُ مصدورٍ يتوسّلُ إليها لِتُخَفّف جُروحَه وآلامَه، وشرارةُ قلبٍ محترق عندما تشتعل نارُه.

كان الرّثاء في الأصل جارياً مع **صدق العاطفة** ونابعاً مِن الانفعال القويّ اللذَينِ غذّتهما الهموم والأحزان ونَمّتها القلوب الدّامية، لأنّه ما زال يمشي مع المُفجّعين ويصوّر أيامهم الكئيبة، يخرج من القلب فيدخل فيه.

مَن الّذي قرأ أبيات فاطمة بنت الأحجَم الخزاعية[5] في الرّثاء ولم يتأثّر بها؛ حيثُ تقول:

يا عينُ ابكي عندَ كلّ صَباحِ ... جُودي بأربَعَةٍ على الجرّاحِ
قد كنتَ لِي جبلاً ألوذُ بهِ ... فتَرَكتَني أضحى بِأجرَدَ ضاحِ
قد كنتُ ذا حَميةٍ ما عِشتَ لِي ... أمشي البَرازَ وكنتَ أنتَ جَناحِي
فاليومَ أخضَعُ للذّليل وأتّقي ... مِنه وأدفَعُ ظالمي بالرّاح
وَإذا دَعَت قُمريّةٌ شَجَناً لَها ... يوماً على فَنَنٍ، دَعَوتُ صَباحي
وَأغُضّ من بصري وأعلم أنّه ... قد بَانَ حدّ فَوارِسي ورِماحي[6]

---

[4] حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1994م، ص: 60، 61.

[5] شاعرة إسلامية، من صحابة رسول الله ﷺ، لها شعر في رثاء إخوة لها، كانت تتمتع بالصدق والشفافية والجرأة.

[6] المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، باب المراثي.

فلمّا انتقل الرّثاء إلى غير المفجّعين وأُخِذَ وسيلةً للتّظاهر بالمساهمة والمُشارَكة في المصيبة ومن وراءها للتّقرُّب والنّفوذ عند أقرِباء الميّت، ظهر فيه التكلُّف والصنعة والغُلُّو والمبالَغة الباردة. دلك شأن الرّثاء من حيثُ العاطفة، وأمّا من ناحية المعنى فكان من عادة القُدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالمُلوك الأعزّة، والأمَم السّالفة، والوُعول الممتنعة في قُلَل الجبال، والأُسُود الخادِرَة في الغياض، وكلّ ذلك في القُدرة والهَيمَنة والبُعد من المَهالك. لكنّ المُحدَثين لم يلتزموا بها، فتارةً سلكوها وأُخرى تركوها[7].

كلّما مضى على الرّثاء زمانٌ وخرجت الحياة الاجتماعية مِن بَساطتها إلى غموضها وتعقُّدها، وظَهَرت روابط وعلائق جديدة، وأخصبت العُقول والتّجاربُ البشرية واتّسعت دائرةُ الفُنون الأدبيّة وآفاقها، تلوَّنَ الرّثاءُ بها وتأثّرَ بآثارها، فنهج مناهج مختلفة واتّجه اتجاهاتٍ متنوعة. منها:

الجمع بين التّعزية والتهنئة في موضع:

قالوا لَمّا مَاتَ معاوية بن أبي سفيان اجتمع الناس بباب يزيد ولم يقدر أحدٌ على الجمع بين التعزية والتهنئة، حتّى أتى عبدالله بن همّام السّلولي فدخل، فقال: يا أمير المُؤمنين آجرك الله على الرزيّة وبارَك لك في العَطيّة، وأعانك على الرّعيّة، فقد رُزِئتَ عظيماً، وأُعطِيتَ جسيماً، فاشكر الله على ما أُعطِيتَ، واصبر على ما رُزِئتَ، فقد فَقَدتَ خليفة... وأُعطيتَ خلافة... ففارقتَ جليلاً، ووُهبتَ جزيلاً؛ إذ قَضى معاوية نَحبَه ووُلّيتَ الرِّئاسةَ وأُعطيتَ السّياسة، فَأورده... موارد السرور ووفّقَك لصالح الأمور.

فاصبِر يزيدُ فَقَد فارَقتَ ذا ثِقةٍ ... واشكر حِباءَ الّذي بالمُلك أصفاكا
لا رُزءَ أصبحَ في الأقوامِ نعلمه ... كما رُزِئتَ، ولا عُقبى كعُقباكا
أصبَحتَ والِيَ أمرِ النّاسِ كلِّهِمِ ... فأنتَ ترعاهُمُ واللهُ يرعاكا
وفي معاويةِ الباقي لنَا خَلَفٌ ... إذا بقيتَ، ولا نَسمَع بمَنعاكا[8]

فنرى الرّثاء جرى مجرى جديداً ساقه إليه أديبٌ ألمعيٌّ قد أتقَن فيه وأبدعَ، لكن ليس هناك ما يدلُّنا على صدق عاطفته، على كلّ حال للكلام قيمته الأدبية ومتعته الفنّية.

ظهور الرّثاء السّياسي:

ودارت بالأمة المسلمة دورات من الزمن، وغمرتهم أمواج رهيبة مؤسفة من الفتن والصراع السياسي والعسكري، فصاروا طوائف وشيعا، لكل منها شعراؤها الذين ينافحون عنها ويرثون قتلاها ويحمسونها للثأر. وأصبح التشيع لأهل بيت الرسول وهم أبناء علي بن أبي طالب وأحفاده وخلفهم، عقيدة ثابتة في نفوس الذين والوهم وتحزبوا لهم.

وذلك أنّه لمّا تشعّبت الدّولة الإسلامية إلى أحزاب مختلفة ودارت الحروب والقتال بينهم ذهب شُعَراء كلّ حزب يبكون قتلاهم ويُثيرون الحُزن والشَّجى عليهم، ويُنزِلون الويلات على قاتليهم. حينما نَشَبت الحَربُ بين الأُمويين والخوارج، وقُتِل من الفريقَين ناسٌ، رَثى أبو ثعلبة أيّوب بن خُوليّ قَتلى الأُمويين، منهم هُدبة اليَشكري، وأبو شُبيل مقاتل بن شيبان فقال[9]:

---

[7] ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص: 143.

[8] المصدر السابق، ج 2، ص: 147.

[9] محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ج 6، ص: 577.

فيا هُدبَ لِلهيَجاء، ويا هُدبَ لِلنَّدى ويا هُدبَ لِلخَصمِ الأَلَدِّ يُحارِبُه
وكان أبو شَيبانَ خيرَ مُقاتِل يُرَجّى، ويَخشى بأسَه مَن يُحارِبُه
فَفازَ ولاقَى... بالخَيرِ كلِّه وخَرَّمه بالسَّيف في... ضَارِبُه

ورثى حسّانُ بنُ جَعدة قتلى الخوارج بأبياتٍ مِنها:

يا عَينِ أذرِي دُموعاً مِنك تَسجاما وابكي صحابَةَ بِسطام وبسطاما
فَلَن تَرَى أبداً ما عِشتَ مِثلَهمُ أَتقَى وأكمَل في الأحلامِ أحلامَا
إنّي لَأَعلمُ أن قَد أُنزِلُوا غُرَفاً مِن الجِنانِ ونالُوا ثَمَّ خُدَّاما

وجديرٌ بالذِّكر هاهنا أَنَّ رَثاء الفَريقَينِ مِن ناحية الأُسلُوب حَذَا حَذوَ الرَّثاء الجاهلي، ولكنَّه مِن ناحية المعنى تَأَثَّر تَأَثُّراً شديداً بِمُقوّماتٍ إسلاميّةٍ تَنافُساً عليها لِتَوجيه مَنَاهجهم السِّياسيّةِ.

وقد أكثر الشعراء من نظم المراثي فيهم. ومن أبرز من نصب نفسه لهذه الغاية في العصر الأموي الكميت شاعر زيد بن علي بن الحسين، وله ديوان يسمى الهاشميات. كما اشتهر بذلك غيره مثل دِعبل الخزاعي، والسيد الحِمْيَري، وكُثَيِّر، وأبي عدي العبْلي، وابن الرومي، والمفلَّج البصري، والشريف الرضي، ومهيار الديلمي وابن هانئ الأندلسي. ونقتطف شيئًا من قصيدة دعبل التي مطلعها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

ومنها:

فآل رسول الله نُحْفٌ جسومهم وآل زياد حُفَّل القصرات
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
إذا وُتِروا مدوا إلى أهلَ وتْرِهم أكفًا عن الأوتار منقبضات
أحاول نقل الشمس من مستقرها وأسمع أحجارًا من الصلدات
فمن عارف لم ينتفع ومعاند يميل مع الأهواء والشبهات
قصارای منهم أن أموت بغصة تردد بين الصدر واللهوات
كأنك بالأضلاع قد ضاق رحبها لما ضُمنت من شدة الزفرات

وقد اعتاد الشيعة منذ قرون بعيدة إحياء ذكرى مصرع الحسين بن علي وأهله في وقعة كربلاء على يد الأمويين، وهو يوم عاشوراء أو العاشر من شهر المحرم من كل عام، ولو أحصى ما جادت به قرائح شعرائهم في رثاء أهل البيت على مدى القرون، لبلغ ذلك مجلدات ضخمة تضارع أكبر موسوعة أدبية.

ومثلما رأينا عند الشيعة، نجد سائر الطوائف والأحزاب الأخرى التي عاصرتها أوجدّت بعدها، ذات تراث خصب من مراثي قتلاها، مما لا سبيل لعرضه لضيق المجال هنا.

رَثاء الرَّجُلِ لِامرأَتِه:

كان العرب يأنَفون مِن رثاء الرّجل لِامرأته ويعدّونه ضعفاً لِلرجُل وحَطّاً مِن كرامته، ومِن جانِبٍ آخَر لَم يقدِّر للنساء منزلة ممتازة أو ذات أهميّة ولم يعترفوا بها، فلا يرون لَهُنَّ فضائلَ كثيرةً وصفاتٍ نبيلةً، لكنّ الإسلام قاومَ هذه الفكرة وقام بالدفاع عن حقوقِهِنَّ وكرامتِهِنَّ.

فرثاء الرجل لامرأته قليلٌ جِدًّا في الشِّعر العربي القديم ونكاد أن نحكم عليه بتعسّر وجوده، لَعَلَّ أوّل قصيدةٍ طويلةٍ في هذا النوع ترجع إلى الشاعر الأُمويّ جرير، فهو لَمّا ماتت زوجته أُمّ حزرة وخَلَّفت أَولاداً صغاراً، وكان الشاعرُ كبيرَ السّن، هاجَت أَحاسيسُه وغَلَت عواطُفه ولم يَملك نَفسَه حتّى أنشَدَ قصيدَةً جميلةً في رثاء زوجته، وأَعرَبَ فيها عن مَدى حُزنِه وتأَلُّمه على فراقها وتركها بنيها الصّغَارِ، ثُمَّ أثنى عليها ثَناءً فائقاً ومدحَها مدحاً رائعاً، منها:

لولا الحَياءُ لَعَادَني استِعبارُ ... وَلَزُرتُ قَبرَك، والحَبيبُ يُزَارُ
ولَقَد نَظَرتُ، وما تَمَتُّعُ نَظرَةٍ ... في اللَّحد حِينَ تَمَكنَ المِحفارُ؟
وَلَّهتِ قَلبي إذ عَلَتني كبرَةٌ ... وذَوُو التَّمائِم مِن بَنيك صِغارُ
نِعمَ القَرينُ، وكنتِ عِلقَ مِضِنَّةٍ ... وارى بِنَعفِ بُليَّةَ الأَحجارُ
عَمِرَت مُكرَّمةَ المَساك وفارَقَت ... ما مسَّها صَلَفٌ ولا إقتَارُ
كانت مُكرَّمةَ العَشيرِ ولم يَكن ... يخشى غوائِل أُمّ حَزرَة جارُ
ولَقَد أَراك كسيتِ أَجمَلَ مَنظَرٍ ... ومَعَ الجَمالِ سكينَةٌ ووَقارُ
وَالرّيحُ طَيّبَةٌ إذا استَقبَلتَها ... والعِرضُ لا دَنِسٌ ولا خَوَّارُ
وإذا سَرَيتُ رأَيتُ نارَك نَوَّرَت ... وَجهاً أَغَرَّ يَزينُه الإسفَارُ
صَلّى المَلائِكةُ الّذين تُخُيّروا ... والصّالِحُونَ عَليك والأبرارُ
كان الخَليطُ هم الخَليط فَأَصبَحُوا ... مُتَبَدِّلينَ، وَبالدِّيار دِيارُ
لا يَلبَثُ القُرَناءُ أن يَتَفَرَّقُوا ... لَيلٌ يَكرُّ عَلَيهِمُ ونَهارُ[10]

والشاعر وإن كان في لَحظَةٍ مُؤلمةٍ وجد نفسَه بحاجة إلى أن ينفّس عنها، وفي حَالة حَرِجَةٍ تستدعي مِنه الانطلاق وراء الشُّعور والإحساس والعاطفة مهما بَعُد مَداها، إلاّ أنَّه لم ينسَ الظُروف التي عاشَ فيها، فهو يَخاف مِن اللُّوّام ويَستحي مِن تكرار البُكاء وزيارة قبر امرأته المَحبوبة، فيَعتذر إليها ويَشكو لَديها في مطلع قصيدته.

خُروجُ الرّثاء مِن دائرة الأشخاص:

وهذا اتّجاه آخر مِن اتّجاهات الرّثاء، يعني أنّ الرثاء يخرج من دائرة الأشخاص إلى البُكاء على بعض المواهب المَفقودة كالشَّباب، أو على بعض ما يستأنس به الإنسانُ مِثل الحيوانات وأدواتِ الحرب والمدن. يُوجَد في ديوان ابن الرّومي أشعارٌ كثيرةٌ يبكي فيها الشاعرُ على شبابه ويثني على أيّامه النضِرات، ومنها هذه الأبيات[11]:

عاصِي العَزاء عَن الشَّبا ... بِ، فَطاوع الدَّمع الغَزيرُ
كيف العَزاء عَنِ الشَّبا ... بِ، وغُصنُه الغُصنُ النَّضيرُ
كيف العَزاءُ عَنِ الشَّبا ... بِ، وعيشُه العَيشُ الغَريرُ
بان الشَّبابُ وكان لِي ... نِعمَ المُجاوِرُ و العَشيرُ
بان الشَّبابُ فلا يَدٌ ... نَحوي ولا عَينٌ تُشيرُ

[10] جرير بن عطية: الديوان، شرح محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، مطبعة دار الاندلس، بيروت.

[11] ابن الرومي: الديوان، اختيار وتصنيف محمد كامل كيلاني، مطبعة التوفيق الأدبية، ص: 280.

ولَـقَـد أسَـرتُ بِـهِ الـقُـلـو بَ، فـقَـلـبي - الـيـوم - الأسـيـرُ
سَـقـيـاً لأيّـامٍ مَضَـت وَطَـويـلُـهـا عـنـدي قَصـيـرُ

حُسنُ الرّثاء وعُيوبُه:

مِمّا لا شك فيه أنّ الرّثاءَ الحَسَن ما كان منبعثاً مِن القلب الدّامي ومِن العاطفة الصادقة، واستطاع الرّاثي أن يُصوّر أحزانَه ويتنفّس عمّا يُحسُ في الصَدر مِن آلامه، يجَسّد المصيبة كما هو يلمسه، ويضع المَرثيَّ مكانَه اللائق به، ويُشرِك الحُزن، ويُسيطِرُ على عواطفهم وأحاسيسهم. ذَكر النُّقادُ أنَّه أفضل المراثي ما خُلِطَ فيه المدحَ بالتّفَجُّع على الموتى، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة مُعربة، فهو الغاية مِن الكلام، قالت الخنساء[12]:

فـلَـولا كـثـرةُ الـبـاكـيـنَ حَـولـي عـلـى إخـوانـهـم لَـقَـتـلـتُ نَـفـسـي
ومـا يَـبـكـونَ مِـثـلَ أخـي ولـكـن أُسـلّـي الـنَّـفـسَ عَـنـهُ بـالـتّـأسّـي
يُـذَكـرُنـي طـلـوع الشَّـمـسِ صَـخـراً وأذكـره لِـكـلِّ غُـروبِ شَـمـسِ

ومن حُسن الرّثاء أن تبدَأَ القصيدة بما يعرِبُ عن عجز الإنسان وفشله أمام مَسألة المَوت، ويحكي عن تحيُّره في مواجهته ودفعه مُعترِفاً بأنّ سعيَه لا يَردُّ راحلاً، كما أنّ بُكاءَه لا يصرف ذاهباً، ومن أجمل ما قيل – وإنْ كان يقطر حزنا - قولُ ابن الرّومي في رثاء ابنه، يقول[13]:

بُـكـاؤكـمـا يَشـفـي وإن كـان لا يُـجـدي فَـجُـودا فَـقَـد أودى نـظـيـرُكـمـا عـنـدي
بُـنَـيَّ الـذي أهـدتـهُ كـفَّـاي لـلـثَّـرَى فـيـا عـزَّةَ المـهـدى ويـا حسـرة المـهـدي
ألا قـاتـل اللَّهُ المـنـايـا ورمـيـهـا مـن الـقـومِ حَـبّـات الـقـلـوب عـلـى عَـمـدِ
تـوخَّـى حِـمَـامُ المـوت أوسـطَ صـبـيـتي فـلـلـه كـيـف اخـتـار واسـطـةَ الـعـقـدِ
عـلـى حـيـن شـمـتُ الـخـيـرَ مـن لَمَـحـاتِـهِ وآنسـتُ مـن أفـعـالـه آيـةَ الـرُّشـدِ
طـواهُ الـرَّدى عـنّـي فـأضـحـى مَـزَارهُ بـعـيـداً عـلـى قُـرب قـريـبـاً عـلـى بُـعـدِ

أو تُبدَأَ بما يدلُّ على عظمة الحادثة وشدّة وَقعها خليطاً بالمَدح والثَناء، ولِهذا يَصِفُ ابن رشيق ابتداء رثاء أبي تمام لِمحمد بن حميد بالحُسن ويقول: ليس في ابتداءات المراثي المُولّدة مثلُ قوله:

أصَـمَّ بِـك الـنَّـاعـي وإن كـانَ أسـمَـعَـا وأصـبَـحَ مَـغـنـى الـجُـودِ بَـعـدَك بَـلـقَـعـا[14]
لِـلـمَـجْـدِ أبـي نَصْـرٍ تَـحِـيَّـةَ مُـزْنَـةٍ إذَا هـيَ حَـيَّـتْ مُـعْـمِـراً عَـادَ مُـمْـرِعـا
فـلـمْ ارَ يـومـاً كـانَ أشـبـه سـاعـةً بِـيَـوْمـي مِـنَ الـيـومِ الـذي فـيـهِ وَدَّعَـا
مصـيـفٌ أفـاضَ الـحـزنُ فـيـهِ جـداولاً مـن الـدمـعِ حـتـى خـلـتُـه عـادَ مـربـعـا
ووالله لا تـقـضـي الـعـيـونُ الـذي لـهُ عـلـيـهـا ولَـوْ صـارَتْ مـعَ الـدَّمْـعِ أدْمُـعـا

---

[12] أبو إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني: زهر الآداب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط 2، مصر، ج، ص: 229.

[13] ابن رشيق: العمدة، ج 2، ص: 141.

[14] ابن الرومي: الديوان، ص: 29.

متى خاض الرّاثي في جوّ كئيبٍ وغَشِيته فداحة المُصيبة - لا سيّما إذا كان من أقرباء المَيّت - فهو ينظر إلى الأشياء بقلبه الحَزين، ويُلبسها ثوبَ الحِداد، ويُشرِكها معه في البكاء. قال قدامة: ويُرثَى بذكر بكاء الأشياء التي كان المَيّت يزاولها، وفي مثله يحتاج إلى تعلّم صحّة المعنى وتمييز اللائق بالبكاء من غيره، فلا يحسن أن يبكي على الميّت كلّ ما يزاوله الميّت مثل الخيل مثلاً، لأنّ العادة أن تَغتَبِطَ بموته لأنّها تستريح، ولِذلك أجادت الخَنساءُ حيثُ تقول في صخرٍ:

فَقَد فَقَدَتك حَذفَةُ فاستراحَت فلَيتَ الخَيلَ فارِسُها يَراها

فلو قالت بدل (استراحت) (بكت) لَأَخطَأَت[15]، ذلك ما ذُكرَ في حسن الرّثاء.

وأمّا **ما قيل في عيوبه**، فمنه:

1. **التّقصيرُ في رَسم صفات المَرثيّ**، بأن لا يُصوّر الشاعر ما كان للشخص من مكانة ومنزلة ومَجد، ولِهذا عِيبَ الكميت في رثائه للرسول ﷺ، حيثُ قال:

لَقَد غَيّبُوا بَرّاً و حَزماً و نائلاً عَشيّة واراه الضريحُ المُصَبَّبُ

فقد رأوا أنّ البيت معيب حيثُ لا يُصوّر مجدَ الرسول ﷺ ولا مكانته بين المسلمين وقومه.

2. **عَدَمُ وفاءِ عبارة الشاعر** بما أحسَّه من ألمٍ، وشَعَر به من عِظَم المُلمّة وبما قصده من الكلام، ولِهذا عابوا أبا العتاهية لما قال: ماتَ الخليفةُ أيّها الثّقلان.

يريدُ أنّه بمجاهرته بنعي الخليفة كأنّه جاهر بالإفطار في رمضانَ نهاراً، وأقدم على فعل ينكره النّاس ويستعظمونه، ولا يخفى عدم إفصاح العبارة بما أراده أبو العتاهية منها[16].

شَكل القصيدة الرّثائية وبناؤها:

<u>ليس من عادة الشُّعراء أن يبدأوا مراثيهم بالنّسيب كما أنّهم يصنعون في المدح والهجاء، وقلّما يوجَدُ في الأدب العربي رثاء ابتُدئَ بالنّسيب، مثل رثاء دُرَيد بن الصِّمّة</u> حيثُ يقول[17]:

أرَثَّ جديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدِ بعاقِبَةٍ وأخلَفَت كلَّ مَوعِدِ؟

وَبَانَتْ وَلَمْ أُحْمِدْ إِلَيْكَ جِوَارَهَا وَلَمْ تَرْجُ فِينَا رِدَّةَ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ

أَعَاذِلَ إِنَّ الرُّزْءَ فِي مِثْلِ خَالِدٍ وَلاَ رُزْءَ فِيمَا أَهْلَكَ الْمَرْءُ عَنْ يَدِ

وَقُلْتُ لِعَرَّاضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ وَالْقَوْمُ شُهَّدي

عَلانِيَةً ظُنُّوا بِألْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ في الفارِسِيّ المُسَرَّدِ

أمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَدِ

فلمَّا عَصَوْني كنْتُ منهُمْ وقد أرَى غِوَايَتَهُمْ وأنَّني غيرُ مُهتَدِ

ومَا أنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غزِيَّةُ أَرْشُدِ

---

[15] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 59.

[16] ابن رشيق، العمدة، ج2، ص140

[17] المصدر السابق، ج 2، ص: 143. والأغاني لأبي الفرج الإصبهاني، ج 10، ص: 11.

والغالب عليها أن تُبتَدَأ بمخاطبة العين وطلب البكاء منها، وإليك أمثلة منها:

قالت الخنساءُ تَرثي أخاها صخراً[18]:

أعَـيـنَـيَّ جُـودا ولا تَـجـمُـدا ألاّ تـبـكـيـان لِصَـخـرِ الـنّـدى

قال حسان بن ثابت يرثي النَّبِيَّ ﷺ[19]:

يـا عَـينِ جُـودي بِـدَمـعٍ مِـنـك إسـبـالٍ ولا تَـمَـلِّـنَّ مِـن سَـحٍّ وإعـوالِ

قالت ليلى الأخيلية تَرثي زوجها:

أيـا عـيـنِ بـكـي تَـوبَـةَ بـن حُـمَـيِّـرِ بِسَـحٍّ كـفَـيـضِ الـجَـدوَل المُـتـفَـجِّـرِ

وأحياناً تبدَأُ بأنّه لا فائدَة في الجَزَع والبُكاء ولا طيبَ في عيش لم يَخلُ من المَوتِ، ولا فرق بين التّرنُّم والتّفَجُّعِ إذا كانت عاقبة الحَياة الفناء، أو تبدَأُ بما يدلُّ على عجز الإنسان أمام المَوت والأسف عليه، يبتَدِئُ أبو ذؤيب الهذلي رثاء بنيه بقوله[20]:

أمِـنَ المَـنـونِ ورَيـبِـهـا تَـتَـوجّـعُ والـدّهـرُ لـيـس بِـمُـعـتِـبٍ مَـن يَـجـزَعُ

أمْ مـا لـجـنـبـك لا يـلائـمُ مضـجـعًـا إلاّ أقـضّ عـلـيـكَ ذاك المضـجـعُ

فـأجـبـتُـهـا أنْ مـا لـجسـمـيَ أنّـه أوْدَى بـنـيَّ مـن الـبـلاد وودّعُـوا

أودى بـنـيَّ وأعـقـبـونـي حسـرةً بـعـدَ الـرُّقـادِ، وعـبـرةً لا تـقـلـعُ

ولـقـدْ أرى أنَّ الـبـكـاءَ سـفـاهـةٌ ولسـوفَ يـولـعُ بـالـبـكـا مـن يُـفـجـعُ

وإذا المـنـيـةُ أنشـبـتْ أظـفـارَهـا ألـفـيـتَ كـلَّ تـمـيـمـةٍ لا تـنـفـعُ

والـنَّـفـسُ راغـبـةٌ إذا رغَّـبْـتَـهَـا فـإذا تُـرَدُّ إلـى قـلـيـلٍ تـقـنـعُ

والنّابغة الذبياني في رثاء أخيه بقوله:

لا يـهـنئ الـنـاسَ مـا يَـرعـون مِـن كـلأٍ ومـا يَسُـوقُـونَ مِـن أهـلٍ ومِـن مـالِ

وأبو العلاء المَعرّي رثاءَه المَشهور للفقيه الحنفي بما يلي[21]:

غَـيـرُ مُـجـدٍ فـي مِـلَّـتـي واعـتـقـادي نَـوحُ بـاك ولا تَـرنُّـم شـادِي

تدور **القصيدة الرّثائية من جهة المعنى على الحزن والبكاء**، الثّناء على الميّت والدُّعاء له، الآراء والخواطر المسليّة، والدعوة إلى التصبّر. وذكروا في الثّناء على الميت أن يكون بالفضائل النّفسية، كما اشترطوا ذلك في المدح، ولهذا يَعُد قدامة بن جعفر من المراثي المختارة قول كعب بن سعد الغَنوي في رثاء أخيه:

لَـعـمـري لَـئـن كـانـت أصـابَـت مُـصـيـبـةٌ أخـي، والمَـنـايـا لـلـرِّجـالِ شَـعُـوبُ

لـقـد عَـجَـمَـت مـنّـي الـحَـوادثُ مـاجـداً عـروفـاً لِـرَيـب الـدّهـرِ حـيـن يُـريـبُ

---

[18] الخنساء: الديوان، دار التراث، بيروت، ص: 15.

[19] حسان بن ثابت: الديوان، تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين، المكتبة العربية، القاهرة، 1974.

[20] المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ج 2، ص: 894.

[21] عبد اللطيف شرارة: شعراؤنا القدامى (ابو العلاء المعري)، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1990، ص: 120.

وقَـد كـان أمّـا حِـلـمُـه فَـمُـرَوَّحٌ عـلـيـنـا، وأمّـا جَـهـلُـه فَـغَـريـبُ
أخي مـا أخي؟ لا فـاحِـشٌ عِـنـدَ بَـيـتِـه ولا وَرَع، عِـنـدَ الـلـقـاء هَـبـوبُ

فيقول قدامة: (فقد أُتِيَ في هذه الأبيات بما وجب أن يُؤتَى به في المراثي؛ إذ أصاب المعنى وجرت على الواجب. أمّا في البيت الأوّل فذكر ما يدلّ على الشِّعر مرثية لهالك لا مديح لباق، وأمّا في الأبيات الأُخر فذكر الأربع التي هي: العقل والشجاعة والعِفّة والحلم. ثُمّ أفتن كعب في هذه المرثية بعد ذلك وزاد في وصف بعض الفضائل مالَم يخرج به عن استقامة)[22].

وأمّا **حسن المراثي من ناحية موسيقى الكلمات** فكان الأنسب بها أن تكون إيقاعات الكلمات مديدة وطول النَّفس فيها طويلاً، حتّى ينفّس الراثي عن زَفَراته، ويُخَفِّفَ عن آهاته.

ومن أعلام الشعر العربي في المغرب، أبو الحسن الحصري القيرواني (420-488هـ)، اشتهر برثاء ابنه عبد الغني الذي توفي في سن مبكرة، وتصدّى هذا الشاعر لما أسماه ابن رشيق بالشعر الصعب، وهو رثاء النساء والأطفال، (ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات)[23].

كما نذكر الرثاء عند المتنبي، لما أضافه للرثاء على مستوى بنية القصيدة، لأنه مزج بين الرثاء والفخر في صلب القصيدة الواحدة، وهي القصيدة التي رثى فيها جدته، ومطلعها:

ألا لا أرى الأحـداث مـدحـا ولا ذمـا فـمـا بـطشـهـا جـهـلا ولا كـفّـهـا حـلـمـا

ونشير إلى أنّ المتنبي أكثر من رثاء النساء، فقد رثى أم سيف الدولة، وأخته خولة، وفيها زاوج بين المدح والرثاء، كما مدح سيف الدولة ورثى أخته، وقد تمكن المتنبي في هذه القصائد التي رثى فيها النساء، من استعمال معاجم الغزل، دون أن يُخلّ بالغرض القائم على التفجع والتألم، وقد ظهرت واضحة، في رثاء المتنبي لخولة أخت سيف الدولة، هذه القدرة الفائقة على رثاء النساء، دون أن يحرم المرأة من أنوثتها، ويتّضح هذا في ما يلي:

يـا أُخْـتَ خَـيـرِ أخٍ يـا بِـنْـتَ خَـيـرِ أبٍ كِـنَـايَـةً بِـهِـمَـا عَـنْ أشـــرَفِ الـنّسَـــبِ
أُجِـلُّ قَـدْرَكِ أنْ تُسْـــمَـيْ مُـؤبَّـنَـةً وَمَـنْ يَصِـــفُـكِ فَـقـد سَـــمّـاكِ لـلـعَـرَبِ
لا يَـمْـلِـكُ الـطّـرِبُ المَحـزُونُ مَـنـطِـقَـه وَدَمْـعَـهُ وَهُـمَـا في قَـبضَـــةِ الـطّـرَبِ
غـدَرْتَ يـا مَـوْتُ كـم أفـنَـيـتَ مـن عـدَدٍ بِـمَـنْ أصَـــبْـتَ وكـم أســكَـتَّ من لجَـبِ
وكـم صَـــجِـبْـتَ أخَـاهَـا في مُـنَـازَلَـةٍ وكـم ســألـتَ فـلَـمْ يَـبـخَـلْ وَلـم تَـخِـبِ
طَـوَى الـجَـزِيـرَةَ حـتـى جـاءَنـي خَـبَـرٌ فَـزِعْـتُ فـيـهِ بـآمـالـي إلـى الـكَـذِبِ
وَهَـمُّـهَـا في الـعُـلَـى وَالمَجْـدِ نَـاشِـئَـةً وَهَـمُّ أتْـرابِـهـا في الـلّـهْـوِ وَالـلّـعِـبِ
يَـعـلَـمْـنَ حـيـنَ تُـحَـيّـا حُـســنَ مَـبسِـمِـهـا وَلَـيـسَ يَـعـلَـمُ إلاّ الله بـالشَّـــنَـبِ
مَسَـــرّةٌ في قُـلُـوبِ الـطّـيـبِ مَـفـرِقُـهَـا وَحَسَـــرَةٌ في قُـلـوبِ الـبَـيـضِ وَالـيَـلَـبِ
إذا رَأى وَرَآهَـــا رَأسَ لابِسِـــــهِ رَأى المَـقـانِـعَ أعـلـى مـنـهُ في الـرُّتَـبِ

---

[22] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 61. والأمالي لابي علي القالي، ج 2، ص: 153.

[23] العمدة ج2 ص154.

في هذه الأبيات حضر معجمان مختلفان معجم الجمال والأنوثة (المبسم الطيب..) والمعجم الحربي الذكوري (البيض، اليلب) دون أن تفقد القصيدة انتماءها إلى غرض الرثاء.

وفاة الرّسول ﷺ في أشعار أقرب المقربّين إليه:

لقد كان لوفاة الرسول ﷺ وقع عظيم على ابنته فاطمة الزهراء، مما جعلها ترثيه بأبيات شعرية قليلة. فهي مضافاً لما عانته من ألم الفاجعة وشدة المصيبة، وعظم النازلة بفقده ﷺ، تشاهد انحراف الامة وانتكاستها وانقلابها الذي اشار ’ليه القرآن الكريم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفـ٧ن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾. وحتى بكاؤها عليه ﷺ، الذي ضجر منه أهل المدينة كان للأمرين معاً.

ومما قالته في رثاء والدها ﷺ:

اغبـــرَّ آفـــــاقُ السّـــماء وكُـوِّرَتْ شـمسُ النهـار وأظلم العصـــــران
فـالأرضُ مـن بـعـد الـنـبي كـئـيـبـــــةٌ أسـفـاً عليـه، كثيـــــرةُ الأحـــــزان
فليبكـــه شـرقُ العباد وغربُهـــــا وَلْـتَـبْـكِـهِ مضـــــرٌ وكـــــلُّ يـمـان
ولـيـبْـكِـــــه الـطَّـــوْدُ المُعَـظَّـمُ جُـودُه والبيـــتُ ذو الأسـتـــــارِ والأركـــان
يـا خـاتـمَ الـرسـلِ المـبـاركُ ضـوؤُه صـلى عـلـيـك منـزل الـقـــــرآن[24]

وقالت، بعد أن أخذت قبضة من تراب قبره الشريف وشمتها:

مـاذا عـلى مـن شـم تـربـة أحـمـــــد أن لا يشـــم مـدى الـزمـان غـوالـيـا
صـبـــــت علـــي مصـائب لو أنهـــا صـبـت عـلى الايـام عـدن لـيـالـيـــا

وقالت، وقد دنت من قبره الشريف:

إن حـزنـــــي عـلـيـك حـزن جـديـــد وفـــــؤادي والله صـب عنـيـــد
كـــــل يوم يزيـــــد فيـه شـجوني واكتـــئـابـــي عـــليـك ليس يبيـد

ولها أيضا:

قـل صـبـــــري وبـان عـنـي عـزائـي بعد فـــقـــدي لخاتـــم الأنبيـــاء
عين يـا عيـــن اسـكبي الـدمع سـحـاً ويـك لا تبخلـــي بفيـــض الدماء
يـــــا رسـول الله يـا خيـــــرة الله وكهـــف الأيتـــام والضـعـفـاء
لـــو تـرى المـنـبر الـذي كـنـت تـعـلـوه عـــلاه الظـلام بعد الضيـــاء
يـــــا إلهي عجـل وفـاتـــي سـريـعـاً قـد بـغـضـت الحـيـاة يـــا مولائـــي

وقالت أيضا:

[24] أبو العباس الجراوي: الحماسة المغربية، الجزء 2، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1991، ص: 785.

اذا مـــــات يومـــــاً ميت قـــل ذكره وذكـــر أبـــي مذ مـــات والله أزيـد
تذكـــرت لمـــا فـــرق الله بيننـا فعزيـت نفســـي بالنبـــي محمـــد
فقلت لهـــا: إن الحيـــاة سـبيلنـا ومـن لـم يـمـت في يـومـه مـات في غـد

ولها أيضا:

اذا اشـتـد شـوقي زرت قبرك باكيـــاً أنـــوح وأشـكـــو لا أراك مجـــاوبي
فيـــا ســاكن الغبـــراء علمتني البكا وذكرك أنسـانـي جميـع المصـائـب
فـإن كنـــت عنـــي في التراب مغيباً فما كنت عن قلبي الحزيـــن بغـائب

وقالت أيضا:

قـل لـلـمـغـيـب تـحـت أطـبـاق الـثـرى إن كـنـت تسـمـع صـرخـتي و نـدائـيـا
صـبـت عـلـي مصـائـب لـو أنـهـا صـبـت عـلـى الأيـام صـرن لـيـالـيـا
قـد كـنـت ذات حـمـى بـظـل مـحـمـد لا أخـتشـي ضـيـمـاً وكان حـمـاليـا
فـاليـوم أخـشـع للذليل و أتـقـي ضـيـمي وأدفـع ظـالمـي بـردائـيـا
فـإذا بكـت قـمرية فـي ليلها شـجـنـاً على غـصـن بـكيت صباحـيا
فـلأجعلن الـدمـع فيـك وشـاحيا ولأجعـلن الحـزن بعدك مؤنسـي
مـاذا عـلى من شم تربة أحمـد أن لا يـشـم مـدى الـزمان غـواليا

وقالت أيضا:

و قـد رزئـنـا بـه مـحضـاً خـلـيـقـتـه صـافي الضـرائـب والأعـراق والـنسـب
وكـنـت بـدراً ونـوراً يسـتضـاء بـه عـلـيـك تـنـزل مـن ذي الـعـزة الـكـتـب
وكـان جـبـريـل روح الـقـدس زائـرنـا فـغـاب عـنـا وكـل الـخـيـر مـحـتـجـب
فـلـيـت قـبـلـك كـان المـوت صـادفـنـا لمـا مضـيـت وحـالـت دونـك الـحـجـب
إنـا رزئـنـا بـمـا لـم يـرز ذو شـجـن مـن الـبـريـة لا عـجـم ولا عـرب
ضـاقـت عـلـي بـلاد بـعـد مـا رحـبـت وسـيـم سـبطاك خسـفاً فيه لي نصب
فـأنـت و الله خـيـر الـخـلـق كـلـهـم وأصـدق الـنـاس حـيـث الصـدق والـكـذب
فسـوف نـبـكـيـك مـا عشـنـا ومـا بـقـيـت مـن الـعـيـون بـتـهـمـال لـهـا كسـب

وقالت أيضا:

قـد كـان بعـدك انباء وهنبثـة لو كنت شـاهدها لم تكثـر الخطـب
إنـا فـقـدنـاك فـقـد الأرض وابـلـهـا واختـل قـومك فـاشـهـدهم فـقـد نكبـوا
قـد كـان جـبـريـل بـالآيـات يـؤنسـنـا فـغـبـت عـنـا فـكـل الـخـيـر مـحـتـجـب
وكـنـت بـدراً ونـوراً يسـتضـاء بـه عـلـيـك تـنـزل مـن ذي الـعـزة الـكـتـب
تـجـهـمـتـنـا رجـال واسـتـخـف بـنـا بـعـد الـنـبي وكـل الـخـيـر مـغـتـصـب

سيعلم المتولي ظلم حامتنا ... يوم القيامة أنى سوف ينقلب
فقد لقينا الذي لم يلقه أحد ... من البرية لا عجم ولا عرب
فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت ... لنا العيون بتهمال له سكب

قصيدة الإمام علي في رثاء الرسول ﷺ:

من بعد تكفين النبي ودفنه ... نعيش بآلاءِ ونجنح للسلوى
رزئنا رسول الله حقا فلن ترى ... بذلك عديلاً ما حيينا من الردى
وكنت لنا كالحصن من دون أهله ... له معقل حرزٌ حريزٌ من العدى
وكنا بمرآكم نرى النور والهدى ... صباح مساء راح فينا او اغتدى
لقد غشيتنا ظلمة بعد فقدكم ... نهاراً وقد زادت علي ظلمة الدجى
فيا خيرَ من ضم الجوانح والحشا ... ويا خيرَ ميت ضمه التربُ والثرى
كأن أمور الناس بعدك ضمت ... سفينة موج حين في البحر قد سما
وضاق فضاء الأرض عنا برحبه ... لفقد رسول الله اذ قيل قد مضى
فقد نزلتْ بالمسلمين مصيبة ... كصدع الصفا لا شعب للصدع في الصفا
فلن يستقل الناس ما حل فيهم ... ولن يُجبر العظم الذي منهم وهى
وفي كل وقت للصلاةِ يهيج ما ... بلال ويدعو باسمه كلما دعا

ولما توفّي رسول الله ﷺ، رثاه حسان بن ثابت بقصائد عدّة، يراها بعضهم من خير ما رثي به النبي ﷺ، منها:

والله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل النبي رسول الأمة الهادي
ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد ... أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان نوراً يستضاء به ... مبارك الأمر ذا حزم وإرشاد
مصدقاً للنبيين الألى سلفوا ... وأبذل الناس بالمعروف للجادي
خير البرية إني كنت من نَهَرٍ ... جار فأصبحت مثل المفرد الصادي[25]

قالت صفية بنت عبد المطلب: وقد ذكرها الطبراني في المعجم الكبير عن عروة، قال: قالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا برا ولم تك جافيا
وكان بنا برا رحيما نبينا ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا
لعمري ما أبكي النبي لموته ... ولكن لهرج كان بعدك آتيا
كان على قلبي لفقد محمد ... ومن حبه من بعد ذاك المكاويا
أفاطم صلى الله ربُّ محمد ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا

[25] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 2، ص: 322.

أرى حســـنـــا أيـــتـــمـــتـــه وتـــركـــتـــه يـــبـــكـــي ويـــدعـــو جـــده الـــيـــوم نـــائـــيـــا
فـــدى لـــرســـول الله أمـــي وخـــالـــتـــي وعـــمـــي ونـــفـــســـي قصـــره وعـــيـــالـــيـــا
صـــبـــرت وبـــلـــغـــت الـــرســـالـــة صـــادقـــاً ومـــت صـــلـــيـــب الـــديـــن أبـــلـــج صـــافـــيـــا
فـــلـــو أن رب الـــعـــرش أبـــقـــاك بـــيـــنـــنـــا ســـعـــدنـــا ولـــكـــن أمـــره كـــان مـــاضـــيـــا
عـــلـــيـــك مـــن الله الســـلام تـــحـــيـــة وأدخـــلـــت جـــنـــات مـــن الـــعـــدن راضـــيـــا

(قال عمر بن الخطّاب (ض) يبكي رسول الله ﷺ، ويذكر مصابه الأعظم الذي هدّ ركنَه، ولم يحزن عليه أحدٌ حزنَه:

مـــا زلـــتُ مُـــذْ وُضـــع الـــفـــراشُ لـــحـــيـــنـــه وثـــوى مـــريـــضـــا، خـــائـــفًـــا أتـــوقّـــعُ
شـــفـــقًـــا عـــلـــيـــه أن يـــزولَ مـــكـــانُـــهُ عـــنّـــا، فـــنـــبـــقـــى بـــعـــدَه نـــتـــفـــجّـــعُ
نـــفـــســـي فـــداؤُكَ، مـــن لـــنـــا فـــي أمـــرنـــا، أمْ مـــنْ نشـــاوره إذا نـــتـــوجّـــعُ
وإذا تَـــحِـــلُّ بـــنـــا الـــحـــوادثُ، مَـــنْ لـــنـــا بـــالـــوحـــي مـــنْ ربٍّ عـــظـــيـــمٍ يســـمـــعُ
لـــيـــت الســـمـــاءَ تـــفـــطّـــرتْ أكـــمـــامُـــهـــا وتـــنـــاثـــرتْ مـــنـــهـــا نـــجـــومُ نُـــزَّعُ

ولم أجد لعثمان رضي الله عنه شيئًا في المعنى، مع أنّه كان من أشدّهم غمًّا وحزنًا، وله الشّعرُ المحكمُ، والنّظْمُ المُنسجمُ المُعْلَمُ)[26].

عن عثمان (ض): (وما صرفه – فيما أظنُّ – عن المرثية وقوّة النّفس، إلاّ ما شغله من الخَرْسِ، وقَيْدِ لسانه عن المنطق وحَبْسِ، فلم ينطق بالمرثية لسانُه، لِما لقيَ منْ شدّة المصيبة جَنَانُه)[27].

[26] ابن ناصر الدين الدمشقي: جامع الآثار في مولد النّبيّ المختار (ص)، نشر حسين محمد علي شكري، الجزء 6، دار الكتب العلمية، ص: 3332، 3333.

[27] ابن ناصر الدين الدمشقي: جامع الآثار في مولد النّبيّ المختار (ص)، ص: 3333.